سـورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ ﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين، نزل بها جبريل على النبي ﷺ وهو قائم على حراء، فعلمه خمس آيات من هذه السورة، وقيل: إن أول ما نزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، قاله جابر بن عبدالله؛ وقد تقدم، وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل؛ قاله أبو ميسرة الهمداني، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما نزل من القرآن ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] والصحيح الأول (١)، قالت عائشة: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة؛ فجاءه الملك فقال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾، خرجه البخاري (٢).

وفي الصحيحين عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق (٣) الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، يتحنث (٤) فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها؛ حتى فجئه (٥) الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: « اقرأ»: فقال: «ما أنا بقارئ » قال: «فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني » (٦) فقال: « أقرأ» فقلت: « ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت «ما أنا بقارئ»، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ .الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» الحديث بكامله (٧)، وقال أبو رجاء العطاردي: وكان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد: مسجد البصرة، فيقعدنا حلقا، فيقرئنا القرآن؛ فكأني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وكانت أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ (٨)، وروت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾، ثم بعدها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ثم بعدها

(١) سبقت هذه الآثار جميعًا في مقدمة الكتاب .

(٢) صحيح : البخاري (٤٩٥٥) في التفسير ، وانظر ما بعده .

(٣) فلق ، وفرق : مثل ضوء الصبح . اللسان «فلق، فرق» .

(٤) يتحنث : يتعبد النهاية (١/ ٤٤٩).

(٥) وفي رواية للصحيح : حتى جاء الحق .

(٦) أرسلني : تركني .

(٧) متفق عليه : البخاري (٣) في بدء الوحي ، ومسلم (١٦٠) في الإيمان ضمن حديث طويل .

(٨) كذا عند الطبري (٣٠/ ٢٧٦) في تفسيره ، والفاكهي (٤/ ١٠) في أخبار مكة.

﴿والضحى﴾ [١] ذكره الماوردي، وعن الزهري: أول ما نزل سورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فحزن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: « إنك نبي الله» فرجع إلى خديجة وقال: « دثروني وصبوا عليّ ماءً باردًا» فنزل ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [٢] [المدثر: ١]، ومعنى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحا باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة، فمحل الباء من ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ النصب على الحال، وقيل: الباء بمعنى على، أي: اقرأ على اسم ربك، يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله، وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي: اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله، وقال قوم: اسم ربك هو القرآن، فهو يقول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اسم ربك، والباء زائدة ؛ كقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وكما قال:

سُودُ المحاجرِ لاَ يَقْرأن بالسُّورِ

أراد: لا يقرأن السور، وقيل: معنى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر اسمه، أمره أن يبتدئ القراءة باسم الله.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ يعني ابن آدم، ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: من دم؛ جمع علقة، والعلقة الدم الجامد؛ وإذا جرى فهو المسفوح، وقال ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة، والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة، قال الشاعر:

تَركناه يَخِرُّ على يديهِ يَمجُّ عليهما عَلَق الوتينِ

وخص الإنسان بالذكر تشريفا له، وقيل: أراد أن يبين قدر نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مهينة، حتى صار بشرًا سويًا، وعاقلاً مميزًا.

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ أي: الكريم، وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم [٣]، والأول أشبه بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه، دل بها على كرمه، وقيل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ﴾ أي: اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارئ، و﴿الأَكْرَمُ﴾ بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

---

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) مرسل : ووصله ابن أبي حاتم (٨/ ٤٧٨) في التفسير من طريق الزهري ، عن عروة عن عائشة ، ولا يليق به التردى من شاهق الجبال كما قال الألباني (١٠٥٢) في الضعيفة .

(٣) انظر: تفسير البغوي (٨/ ٤٧٩) .

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى :قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يعني: الخط والكتابة؛ أي: علم الإنسان الخط بالقلم، وروى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش[(١)]، فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا، وسمي قلمًا لأنه يقلم؛ أي: يقطع، ومنه تقليم الظفر، وقال بعض الشعراء المحدثين يصف القلم:

فكأنه والحبرُ يَخْضِبُ رَأسَهُ   شَيخٌ لوصل خَرِيدةٍ يَتصنَّعُ
لِمَ لا ألاحظه بعينِ جَلالة   وبه إلى الله الصَّحائفُ تُرْفَعُ

وعن عبدالله بن عمرو قال: يا رسول الله، أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتب، فإن الله علم بالقلم»[(٢)]، وروى مجاهد عن ابن عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن، فكان القلم، والعرش، وجنة عدن، وآدم عليه السلام، وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه آدم عليه السلام؛ لأنه أول من كتب، قاله كعب الأحبار، الثاني: أنه إدريس، وهو أول من كتب[(٣)]، قاله الضحاك، الثالث: أنه أدخل كل من كتب بالقلم؛ لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خلقه، وبين نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه.

الثانية : صح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة، قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي»[(٤)]، وثبت عنه عليه السلام أنه قال: «أول ما خلق الله: القلم، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه»[(٥)]، وفي الصحيح[(٦)] من حديث ابن مسعود أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها

---

(١) صحيح : عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٢٥) لابن أبي حاتم والطبري.

(٢) رواه الحاكم (٣٥٨) في المستدرك .

(٣) ونقله ابن كثير (١/ ١٥٠) في البداية ، عن ابن إسحاق ، وذكر رأى بعضهم بأنه هو المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي (٥٣٧) عند مسلم وفيه: «إنه كان نبي يخط به ـ يعني بالرمل ، فمن وافق خطه فذاك»، اهـ ، وانظر : تفسير الماوردي (٦/ ٣٠٥) .

(٤) متفق عليه : البخاري (٣١٩٤) في بدء الخلق ، ومسلم (٢٧٥١/ ١٤) في التوبة كلاهما ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(٥) صحيح بنحوه : رواه الترمذي (٢١٩٥) في القدر ، وأبو داود (٤٧٠٠) في السنة ، عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ، وصححه الألباني في الموضعين .

(٦) متفق عليه بغير هذا اللفظ : البخاري (٣٣٣٢) في بدء الخلق ، ومسلم (٢٦٤٣/ ١) في القدر .

وعظمـها، ثم يقول: يا رب، أذكـر أم أنثى؟ فيـقضي ربك مـا شاء ويكتب الملك ثم يـقول: يا رب أجله، فيقـول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقـول: يا رب رزقه، فيقضي ربك مـا شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج المـلك بالصحيـفة في يده، فلا يزيد على مـا أمر ولا ينقص»، وقـال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠].

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصـل ثلاثة: القلم الأول: الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب، والقلم الثاني: أقـلام الملائكة، جعلهـا الله بأيديهم يكتبون بهـا المقادير والكوائن والأعـمال، والقلم الثالث: أقـلام الناس، جعلهـا الله بأيديهم، يكتبـون بها كـلامهم، ويصلون بها إلـى مآربهم، وفي الكتابة فضائل جمة، والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدمي.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت الـعرب أقل الخلق معرفة بالكتابة، وأقل العرب مـعرفة به المصطفى ﷺ؛ صرف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبينًا في سورة «العنكبوت»، وروى حماد بن سلمة عن الزبير بن عـبد السلام، عن أيوب بن عبدالله الفهري، عن عبـدالله بن مسـعود، قـال: قال رسـول الله ﷺ: «لا تسكـنـوا نساءكم الغـرف، ولا تعلمـوهن الكتـابة»[1]، قـال علمـاؤنا: وإنما حذرهـم النبي ﷺ ذلك، لأن في إسكانهن الغـرف تطلعـا إلى الرجـال؛ وليس في ذلك تحصين لهن ولا تسـتر، وذلك أنهـن لا يملكن أنفسـهن حتى يشـرفن على الرجال؛ فتحدث الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غرفا ذريعة إلى الفتنة، وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساء خير لهن من ألا يراهن الرجال، ولا يرين الرجال»[2]، وذلك أنها خلقت من الرجل، فهمتها في الرجل، والرجل خُلقت فيه الشهوة، وجعلت سكنا له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبـه، وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سببًا للفـتنة، وذلك إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى، والكتابة عين من العيون، بها يبصـر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده، وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا يـنطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان، فأحب رسـوله ﷺ أن يقطع عنهن أسباب الفتنة؛ تحصينا لهن، وطهارة لقلوبهن.

﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

قيل ﴿الإِنسَانَ﴾ هنا آدم عليه السلام، علمـه أسماء كل شيء؛ حسب ما جـاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، فلم يبق شيء إلا وعلم سبـحانه آدم اسمـه بكل لغة، وذكره آدم للمـلائكة كما علمه، وبـذلك ظهر فضله، وتبين قدره، وثـبتت نبوته، وقامت حـجة الله

(١) موضوع: الحاكم (٢/ ٤٣٠) وصححه، والهيثـمي (٤/ ٩٣)، وعزاه للطبراني في الأوسط بسند فيه: محمد ابن إبراهيم الشامي وهو كذاب.
وقال الذهبي (٦/ ٣٣) في المـيزان، عن ابن حبـان: «لا تحل الرواية عنه وكان يضع الحـديث» (ا هـ) وقد رووه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ فيما زعموا.

(٢) ضعيف بنحوه: الهيثمي (٤/ ٢٥٥) في المجمع، عن علي بنحوه، وعزاه للبزار، وقال: «فيه من لا أعرفه، وفيه علي ابن زيد أيضًا».
قلت: وانظره في نوادر الأصول (٣/ ٨٢) وحلية الأولياء (٢/ ٧٥) بسند فيه علي بن زيد وله مناكير.

على الملائكة وحجته، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر، ثم توارثت ذلك ذريته خلفًا بعد سلف، وتناقلوه قومًا عن قوم، وقد مضى هذا في سورة البقرة مستوفى والحمد لله، وقيل ﴿الإنسَانَ﴾ هنا الرسول محمد ﷺ؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وعلى هذا فالمراد بـ ﴿عَلَّمَكَ﴾ المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل، وقيل: هو عام لقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ قيل: إنه نزل في أبي جهل، وقيل: نزلت السورة كلها في أبي جهل؛ نهى النبي ﷺ عن الصلاة؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب، وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل، ويجوز أن يكون خمس آيات من أولها أول ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبي ﷺ بضم ذلك إلى أول السورة؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله، ألا ترى أن قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخر ما نزل، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل، و﴿كَلاَّ﴾ بمعنى حقا؛ إذ ليس قبله شيء، والإنسان هنا أبو جهل، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان، ﴿أَن رَّآهُ﴾ أي: لأنه رأى نفسه استغنى؛ أي: صار ذا مال وثروة، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه، قال: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من استغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهبا، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خَيِّرْهُم في ذلك فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوه: فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة»[(١)]، فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون ذلك؛ فكف عنهم إبقاء عليهم، وقيل ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ بالعشيرة والأنصار والأعوان، وحذف اللام من قوله ﴿أَن رَّآهُ﴾ كما يقال: إنكم لتطغون إن رأيتم غناكم، وقال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسمًا وخبرًا، نحو الظن والحسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتني، ومتى تراك خارجًا، ومتى تظنك خارجًا، وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن ابن كثير: «أن رَأَهُ اسْتَغْنَى» بقصر الهمزة[(٢)]، الباقون ﴿رَّآهُ﴾ بمدها، وهو الاختيار.

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝ ﴾

أي: مرجع من هذا وصْفُه، فيجازيه، والرُّجعى والمْرجِعُ والرُّجُوعُ مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعًا ومرجعًا، ورُجْعَى على وزن فُعلى.

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ وهو: أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ وهو: محمد ﷺ، فإن أبا جهل قال:

(١) إسناد واهٍ: أبو صالح (باذام) أو (باذان) مولى أم هانئ يكذب علي ابن عباس ـ رضي الله عنهما.
(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (١٨٩).

إن رأيت محمدًا يصلي لأطأن على عنقه؛ قاله أبو هريرة، فأنزل الله هذه الآيات تعجبًا منه[١]، وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أمن هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾

أي: أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكًا؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

يعني أبا جهل كذب بكتاب الله عز وجل، وأعرض عن الإيمان، وقال الفراء: المعنى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ وهو على الهدى، وآمر بالتقوى، والناهي مكذب متول عن الذكر؛ أي: فما أعجب هذا! ثم يقول: ويله ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى؛ أي: يراه ويعلم فعله؛ فهو تقرير وتوبيخ، وقيل: كل واحد من ﴿أَرَأَيْتَ﴾ بدل من الأول، و﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ الخبر.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: أبو جهل عن أذاك يا محمد، ﴿لَنَسْفَعًۢا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي: لنأخذن ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلنذلنه، وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتطوى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] فالآية - وإن كانت في أبي جهل - فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة، وأهل اللغة يقولون: سفعت بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذبًا شديدًا، ويقال: سفع بناصية فرسه، قال:

قَومٌ إذا كَثُرَ الصِّياحُ رأيتهم ... من بين مُلْجم مهره أو سَافِع

وقيل: هو مأخوذ من سفعته النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد؛ كما قال:

أثافيَّ سفعًا في مُعَرَّسِ مِرْجلٍ ... ونؤيٌ كجذم الحوضِ أثلمَ خَاشِعِ

والناصية: شعر مقدم الرأس، وقد يعبر بها عن جملة الإنسان؛ كما يقال: هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان، وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته، وقال المبرد: السفع: الجذب بشدة؛ أي: لنجرن بناصيته إلى النار، وقيل: السفع: الضرب؛ أي: لنلطمن وجهه، وكله متقارب المعنى، أي: يجمع عليه الضرب عند الأخذ؛ ثم يجر إلى جهنم، ثم قال على البدل ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، والخاطئ معاقب مأخوذ، والمخطئ غير مأخوذ، ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة، كوصف الوجوه بالنظر في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، وقيل: أي: صاحبها كاذب خاطئ؛ كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم؛ أي: هو صائم في نهاره، ثم قائم في ليله.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي:

(١) صحيح: مسلم (٢٧٩٧) في صفات المنافقين.

الملائكة الغلاظ الشداد ـ عن ابن عباس وغيره ـ واحدهم زبني؛ قاله الكسائي، وقال الأخفش: زابن. أبو عبيدة: زبنية، وقيل: زباني، وقيل: هو اسم للجمع؛ كالأبابيل والعباديد، وقال قتادة: هم الشُّرط في كلام العرب، وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع؛ ومنه المزابنة في البيع، وقيل: إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السمرقندي - رحمه الله - قال: وروي في الخبر أن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك، فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾، فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزعا؛ فقيل له: خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارسا فهددني بالزبانية، فما أدري ما الزبانية، ومال إلي الفارس، فخشيت منه أن يأكلني [١]، وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم وقيل: إنهم أعظم الملائكة خلقا، وأشدهم بطشا، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه، قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوى مَطاعين في الوَغَى زبانية غلب عظامٌ حُلُومُها

وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن على عنقه، فقال النبي ﷺ: « لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا » [٢]، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: مر أبو جهل بالنبي ﷺ وهو يصلي عند المقام، فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد فأغلظ له رسول الله ﷺ؛ فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني يا محمد، والله إني لأكثر أهل الوادي هذا ناديا؛ فأنزل الله عز وجل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾، قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب من ساعته، أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح [٣]، والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدي فيه القوم؛ أي: يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير:

لهم مَجْلسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذلةٌ

وقال زهير:

وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُم

وقال آخر:

واستبَّ بَعْدَك يا كُليبُ المجلسُ

وقد ناديت الرجل أناديه إذا جالسته، قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادي أمامَ الحيِّ عَقْدُهُما سَواءُ

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل، ﴿لا تُطِعْهُ﴾ أي: فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، ﴿وَاسْجُدْ﴾ أي: صل لله ﴿واقْتَرِبْ﴾ أي: تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة،

(١) ضعيف: كذا رواه السمرقندي (٣/ ٤٩٥) في بحر العلوم بصيغة التمريض، وهو دليل على ضعفه.
(٢) صحيح: البخاري (٤٩٥٨) في التفسير، والترمذي (٣٣٤٨) في التفسير.
(٣) حسن غريب صحيح: الترمذي (٣٣٤٩) في التفسير وصححه الألباني هناك.

وقيل: المعنى: إذا سجـدت فاقترب من الله بالدعاء، روى عطاء عن أبي هريرة قـال: قال رسول الله ﷺ: « أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، ما كانت جبهته في الأرض ساجدا لله »[١].

قال علماؤنا: وإنما كـان ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة؛ ولله غـاية العزة، وله العزة التي لا مقـدار لها؛ فكلمـا بعدت من صفـته، قـربت من جنته، ودنوت من جـواره في داره، وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال: « أما الركوع فـعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجـتهدوا في الدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم»[٢]، ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللت الرِّقَابُ تواضعا منا إليك فعزُّهَا في ذُلها

وقال زيد بن أسلم: اسجد أنت يا محمد مصليا، واقترب أنت يا أبا جهل من النار.

قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ﴾ هذا من السجود، يحتمل أن يكون بمعنى السـجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هـذه السورة، قال ابن العربي[٣] والظاهر أنه سجود الصـلاة لقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغـيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدت مع رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وفي ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] سجدتين، فكان هذا نصًا على أن المراد سجود التلاوة[٤]. وقد روى ابن وهب، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن علي بـن أبي طالب رضي الله عنه، قال: عزائم السجود أربع ﴿الـم﴾ و﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿النَّجْمِ﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[٥]، وقال ابن العربي: وهذا إن صح يلزم عليه السجـود الثاني من سورة «الحج»، وإن كان مقتـرنًا بالركوع؛ لأنه يكون معناه اركعـوا في موضع الركوع، واسجـدوا في موضع السجـود، وقد قال ابن نافع ومطرف: وكـان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وابن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بـن أبي عبدالرحمن عن نافع عن ابن عمر قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] قال رسول الله ﷺ لمعاذ: « اكتبها يا معاذ» فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون - وهـي الدواة - فكتبها معاذ؛ فلما بلغ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ سجـد اللوح، وسجد القلم، وسـجدت النون، وهم يقولون: اللـهم ارفع به ذكرا، اللهم احطط به وزرًا، اللهم اغفر به ذنبًا، قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ، فسجد[٦].

ختمت السورة، والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى، وله الحمد والمنة.

(١، ٢) صحيحان: وقد سبقا.

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٠) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٤) صحيح: مسلم (٥٧٨) في المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) إسناد حسن: وإن كان الهيثمي قد رواه (٢/ ٢٨٥) في المجمع من طريق الطبراني في الأوسط وفيه الحارث وهو ضعيف، وكذا رواه الحاكم (٣٩٥٧) فلعلها شواهد له.

(٦) موضوع: لسان الميزان (١/ ١٠٠) وتنزيه الشريعة (١/ ٢٨٦) لابن عراق، والشوكاني (٣٠٣) في الفوائد المجموعة، والدارقطني (١/ ٢٨١) في سؤالات حمزة، وعلته إبراهيم الخواص، كان يروى الموضوعات إسنادًا ومتنًا.

سـورة القدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن، وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة؛ لأن المعنى معلوم، والقرآن كله كالسورة الواحدة، وقد قال ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، [الدخان: ٣] يريد: في ليلة القدر، وقال الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر [١]، وقيل: بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان جبريل ينزله على النبي ﷺ نجوما نجوما، وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة؛ قاله ابن عباس، وقد تقدم في سورة البقرة، وحكى الماوردي عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، في ليلة مباركة، جملة واحدة من عند الله، من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا؛ فنجمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونجمه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة، قال ابن العربي «وهذا باطل؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة» [٢].

قوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال مجاهد: في ليلة الحكم [٣]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ قال: ليلة الحكم، والمعنى ليلة التقدير؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، ويسلمه إلى مدبرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل، عليهم السلام [٤]، وعن ابن عباس قال: يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت، حتى الحاج، قال عكرمة: يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، ما يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم، وقاله سعيد بن جبير [٥]، وقد مضى في أول سورة الدخان هذا المعنى، وعن ابن عباس أيضا: أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر، وقيل: إنما سميت بذلك لعظمها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر؛ أي شرف ومنزلة، قاله الزهري وغيره،

(١) صحيح إلى الشعبي: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٨٢) وهذا المعنى الذي نرتضيه.

(٢) هذا باطل كما قال المصنف ـ رحمه الله ـ نقلاً عن ابن العربي المالكي ومنجمًا: مفرقًا، وقد سبق الحديث عنه في سورة «البقرة».

(٣) صحيح: ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٥) في تفسيره.

(٤) ولا يصح تسمية ملك الموت (عزرائيل) فلم يصح به كلام من القرآن، أو من صحيح السنة المطهرة.

(٥) كذا عند الطبري (٣٠/ ٢٨٣) في تفسيره.

وقيل: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلاً، وقال أبو بكر الوراق: سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها، وقيل: سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتابًا ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر، وقيل: لأنه ينزل فيها ملائكة ذوي قدر وخطر، وقيل: لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة، وقال سهل: سميت بذلك لأن الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين، وقال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيق.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝﴾

قال الفراء: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أدراه، وما كان من قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٦٣] فلم يدره، وقاله سفيان، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بين فضلها وعظمها، وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر، والله أعلم، وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وقال أبو العالية: ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر، وقيل: عنى بألف شهر جميع الدهر؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] يعني: جميع الدهر، وقيل: إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدًا حتى يعبد الله ألف شهر، ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، فجعل الله تعالى لأمة محمد ﷺ عبادة ليلة خيرًا من ألف شهر كانوا يعبدونها، وقال أبو بكر الوراق: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرًا من ملكهما، وقال ابن مسعود: إن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر؛ فعجب المسلمون من ذلك؛ فنزلت ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ [الدخان: ٣] الآية[١]، ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، التي لبس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله، ونحوه عن ابن عباس[٢]، وهب بن منبه: إن ذلك الرجل كان مسلما، وإن أمه جعلته نذرا لله، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام، وكان يسكن قريبًا منها؛ فجعل يغزوهم وحده، ويقتل ويسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بلحيي بعير، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطش، انفجر له من اللحيين[٣] ماء عذب، فيشرب منه، وكان قد أعطي قوة في البطش، لا يوجعه حديد ولا غيره، وكان اسمه شمسون، وقال كعب الأحبار: كان رجلا ملكًا في بني إسرائيل، ففعل خصلة واحدة، فأوحى الله إلى نبي زمانهم: قل لفلان يتمنى، فقال: يا رب أتمنى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي، فرزقه الله ألف ولد، فكان يجهز الولد بماله في عسكر، ويخرجه مجاهدا في سبيل الله، فيقوم شهرًا ويقتل ذلك الولد، ثم يجهز آخر بماله في عسكر، فكان كل ولد

(١، ٢) مرسلان ومنقطعان: الطبري (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥) في تفسيره، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٤، ٤٣٥).

(٣) اللحيان - بفتح اللام وتشديدها وسكون الحاء: عظم الحنك الذي عليه الأسنان. اللسان «لحى».

يقتل في الشهر، والملك مع ذلك قائم الليل، صائم النهار؛ فقتل الألف ولد في ألف شهر، ثم تقدم فقاتل فقتل، فقال الناس: لا أحد يدرك منزلة هذا الملك؛ فأنزل الله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ من شهور ذلك الملك، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد في سبيل الله(١)، وقال عليّ وعروة: ذكر النبي ﷺ أربعة من بني إسرائيل، فقال: «عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعصوه طرفة عين»؛ فذكر أيوب وزكريا، وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون؛ فعجب أصحاب النبي ﷺ من ذلك، فأتاه جبريل فقال: يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك؛ ثم قرأ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فسر بذلك رسول الله ﷺ(٢)، وقال مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله ﷺ أري أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر (٣)، وفي الترمذي، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ أري بني أمية على منبره، فساءه ذلك؛ فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، يعني: نهرا في الجنة، ونزلت ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكها بعدك بنو أمية، قال القاسم بن الفضل الحداني: فعددناها، فإذا هي ألف شهر، لا تزيد يومًا، ولا تنقص يومًا، قال: حديث غريب(٤).

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سدرة المنتهى؛ ومسكن جبريل على وسطها، فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس، إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾، ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي: جبريل عليه السلام، وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة، جعلوا حفظة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة، وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة، وأقربهم من الله تعالى، وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة، رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا؛ ذكره الماوردي (٥) وحكى القشيري: قيل هم صنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيد وأرجل؛ وليسوا ملائكة، وقيل: ﴿الرُّوحُ﴾ خلق عظيم يقوم صفا، والملائكة كلهم صفا، وقيل: ﴿الرُّوحُ﴾ الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، أي بالرحمة، ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أي بأمره، ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أمر بكل أمر قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي

(١، ٢) مرسلان ومنقطعان: الطبري (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥) في تفسيره، وتفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٤، ٤٣٥).

(٣) مرسل ضعيف: مالك (١/ ٣٢١) في الاعتكاف بلاغًا.

(٤) غريب ضعيف: الترمذي (٣٣٦١) في التفسير، وقال: «غريب»، وأنكره ابن كثير (٨/ ٣٤٥، ٣٤٦) في تفسيره، وكذا (٤/ ٥٣٠) في البداية، وأعله الذهبي (٤/ ٣٩٦) في السير بالانقطاع وضعفه الألباني.

(٥) سبق تضعيف هذه الآثار كلها في سورة «النبأ».

بأمر الله، وقراءة العامة: ﴿تَنَزَّلُ﴾ بفتح التاء؛ إلا أن البزي شدد التاء، وقرأ طلحة بن مصرف وابن السميقع بضم التاء على الفعل المجهول، وقرأ علي وابن عباس وعكرمة والكلبي: «من كل امرئ»، وروي عن ابن عباس أن معناه: من كل ملك؛ وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة، فيسلمون على كل امرئ مسلم، «فمن» بمعنى على، وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: إذا كان ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى (١).

﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

قيل: إن تمام الكلام ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ثم قال ﴿سَلَامٌ﴾، روي ذلك عن نافع وغيره (٢)؛ أي: ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي إلى طلوع الفجر، قال الضحاك: لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة (٣) وقيل: أي هي سلام؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة، وكذا قال مجاهد: هي ليلة سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى (٤)، وروي مرفوعا، وقال الشعبي: هو تسليم الملائكة على أهل المساجد، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر؛ يمرون على كل مؤمن، ويقولون: السلام عليك أيها المؤمن (٥)، وقيل: يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها، وقال قتادة: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: خير هي، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: إلى مطلع الفجر، وقرأ الكسائي وابن محيصن: «مَطلِع» بكسر اللام، الباقون بالفتح، والفتح والكسر: لغتان في المصدر، والفتح الأصل في فعل يفعل؛ نحو المقتل والمخرج، والكسر على أنه مما شذ عن قياسه؛ نحو المشرق والمغرب والمنبت والمسكن والمنسك والمحشر والمسقط والمجزر، حكى في ذلك كله الفتح والكسر، على أن يراد به المصدر لا الاسم.

وهنا ثلاث مسائل:

الأولى: في تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء في ذلك، والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين؛ لحديث زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن أخاك عبدالله بن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبدالرحمن! لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس؛ ثم حلف لا يستثني: أنها ليلة سبع وعشرين، قال قلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ،

---

(١) ضعيف: البيهقي (٣/ ٣٤٣) في الشعب، وقال: «تفرد به أحمد بن عبد العزيز، عن أصرم بن حوشب»، وذكره المنذري (٢/ ٦٢) في الترغيب مطولاً، وقال: «ليس فيه من أجمع على ضعفه».

قلت: وهذا منه وهم فإن أصرم بن حوشب متروك الحديث كما في التاريخ الصغير والأوسط (٢/ ٢٩٠) للبخاري ـ رحمه الله ـ والكبكبة: الجماعة. النهاية (٤/ ١٤٤).

(٢ ـ ٥) مراسيل ومقاطيع: لا تستند إلى وحي، وانظر الطبري (٣٠/ ٢٨٦) في تفسيره، والدر المنثور (٦/ ٦٣٠) للسيوطي.

أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لا شعاع لها ، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وخرجه مسلم(١)، وقيل: هي في شهر رمضان دون سائر العام؛ قاله أبو هريرة وغيره، وقيل: هي في ليالي السنة كلها، فمن علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر، لم يقع العتق والطلاق إلا بعد مضى سنة من يوم حلف، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت؛ فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضى حول، وكذلك العتق؛ وما كان مثله من يمين أو غيره، وقال ابن مسعود: من يقم الحول يصبها؛ فبلغ ذلك ابن عمر، فقال: يرحم الله أبا عبدالرحمن! أما إنه علم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، ولكنه أراد ألا يتكل الناس، وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة، وقيل عنه: إنها رفعت - يعني ليلة القدر - وأنها إنما كانت مرة واحدة؛ والصحيح أنها باقية، وروي عن ابن مسعود أيضا: أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة، كانت في العام المقبل في يوم آخر، والجمهور على أنها في كل عام من رمضان، ثم قيل: إنها الليلة الأولى من الشهر؛ قاله أبو رزين العقيلي، وقال الحسن وابن إسحاق وعبدالله بن الزبير: هي ليلة سبع عشرة من رمضان، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر، كأنهم نزعوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١] ، وكان ذلك ليلة سبع عشرة، وقيل: هي ليلة التاسع عشر، والصحيح المشهور: أنها في العشر الأواخر من رمضان؛ وهو قول مالك والشافعي والأوزاعي وأبي ثور وأحمد، ثم قال قوم: هي ليلة الحادي والعشرين، ومال إليه الشافعي رضي الله عنه، لحديث الماء والطين ورواه أبو سعيد الخدري، خرجه مالك وغيره، وقيل ليلة الثالث والعشرين؛ لما رواه ابن عمر أن رجلا قال: يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى، فقال النبي ﷺ: « أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين » (٢)، قال معمر: فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيبا، وفي «صحيح» مسلم أن النبي ﷺ قال: « إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين » (٣)، قال عبدالله بن أنيس: فرأيته في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين، كما أخبر رسول الله ﷺ، وقيل: ليلة خمس وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: « التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى » (٤)، رواه مسلم، قال مالك: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس وعشرين، وقيل: ليلة سبع وعشرين، وقد مضى دليله، وهو قول علي رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبيّ بن كعب، وروى ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من كان متحريا ليلة القدر، فليتحرها ليلة سبع وعشرين » (٥).

---

(١) صحيح : مسلم (٧٦٢) في صلاة المسافرين ، وأبو داود (١٣٧٨) في الصلاة ، والترمذي (٧٩٣) في الصوم .
(٢) متفق عليه : البخاري (٢٠١٥) في التراويح ، ومسلم (١١٦٥) في الصيام .
(٣) صحيح : مسلم (١١٦٨) في الصيام .
(٤) صحيح : مسلم (١١٦٧/ ٢١٣) في الصيام.
(٥) صحيح : مسلم (١١٦٥) في الصيام .

وقال أبيّ بن كعب: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « ليلة القدر ليلة سبع وعشرين »[١]، وقال أبو بكر الوراق: إن اللّه تعالى قسم ليالي هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: هي وأيضا فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، فتجيء سبعا وعشرين، وقيل: هي ليلة تسع وعشرين؛ لما روي أن النبي ﷺ قال: «ليلة القدر التاسعة والعشرون - أو السابعة والعشرون وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى»[٢]، وقد قيل: إنها في الأشفاع، قال الحسن: ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة، فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها، يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة، وقيل: إنها مستورة في جميع السنة، ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي، وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان، طمعا في إدراكها، كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، واسمه الأعظم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغضبه في المعاصي، ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعبد الصالح بين العباد؛ رحمة منه وحكمة.

الثانية: في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها، وقال الحسن قال النبي ﷺ في ليلة القدر: « إن من أماراتها: أنها ليلة سمحة بلجة، لا حارة ولا باردة، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع »[٣]، وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر، فأخذت من مائه، فوجدته عذبًا سلسًا.

الثالثة: في فضائلها: وحسبك بقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، وفي الصحيحين: « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه »[٤] رواه أبو هريرة، وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « إذا كان ليلة القدر، تنزل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى، منهم جبريل، ومعهم ألوية ينصب منها لواء على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء على المسجد الحرام، ولواء على طور سيناء، ولا تدع فيها مؤمنا ولا مؤمنة إلا تسلم عليه، إلا مدمن الخمر، وآكل الخنزير، والمتضمخ بالزعفران »[٥]، وفي الحديث: « إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء فجرها، ولا يستطيع أن يصيب فيها أحدا بخبل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر»[٦]، وقال الشعبي: وليلها كيومها، ويومها كليلها، وقال الفراء؛ لا يقدر اللّه في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدر في غيرها البلايا والنقم؛ وقد تقدم عن الضحاك، ومثله لا يقال من جهة الرأي، فهو مرفوع، واللّه أعلم، وقال سعيد بن المسيب في

---

(١) صحيح : مسلم (٧٦٢) في الصيام .

(٢) حسن : الهيثمي (٣/ ١٧٦) في المجمع وعزاه لأحمد ورجاله رجال الصحيح ، والطبراني ورجاله ثقات ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ، وحسنه الألباني (٥٤٧٣) في صحيح الجامع .

(٣) حسن : ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥١) ، وانظر صحيح الجامع (٥٤٧٢) .

(٤) متفق عليه : البخاري (١٩٠١) في الصوم ، ومسلم (٧٥٩ ، ٧٦٠ / ١٧٣ ـ ١٧٦) في صلاة المسافرين .

(٥) ضعيف جدًا : ذكره ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٦) في تفسيره من كلام كعب الأحبار .

(٦) ضعيف : ذكره الآلوسي (٩/ ٤٢٥) في روح المعاني .

«الموطأ»: من شهد العشاء من ليلة القدر، فقد أخذ بحظه منها (١)، ومثله لا يدرك بالرأي، وقد روى عبيدالله بن عامر بن ربيعة: أن رسول اللّه ﷺ قال: « من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة، فقد أخذ بحظه من ليلة القدر » (٢) ذكره الثعلبي في تفسيره، وقالت عائشة رضي اللّه عنها: قلت: يا رسول اللّه إن وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: « قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » (٣).

(١) صحيح مرسل: رواه مالك بلاغًا عن سعيد بن المسيب حديث (١٦) في كتاب الاعتكاف ـ بتحقيقي ـ وقد رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٣٩٨) في المصنف بسند صحيح مرسل.

(٢) ضعيف: نحوه ذكره السيوطي في الجامع الكبير (٤/ ١٣٤٢)، والهندي في كنز العمال (٢٤٠٩١).

(٣) صحيح: الترمذي (٣٥١٣) في التفسير، وابن ماجه (٣٨٥٠) في الدعاء، وأحمد (١/ ٤١٩)، وصححه الألباني ـ رحمه الله تعالى.

obeikandl.com

سـورة البينة

وقد جاء في فضلها حديث لا يصح، رويناه عن محـمد بن عبد اللّه الحضرمي قال: قال لي أبو عبدالرحمن بن نمير: اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب، فـاكتب عنه فإنه قد كتب، فذهبت إليه، فقال: حدثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لو يعلم الناس ما في ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لعطلوا الأهل والمال، فتعلموها» فقال رجل من خزاعـة: وما فيها من الأجر يا رسول اللّه؟ قـال: « لا يقرؤها منافق أبدا، ولا عبد في قلبه شك في اللّه، واللّه إن الملائكة المقربين يقرؤونها منذ خـلق اللّه السموات والأرض ما يفترون من قراءتها، وما من عـبد يقرؤها إلا بعث اللّه إليه ملائكة يحفظونه في دينه ودنيـاه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة »، قال الحضرمي: فجئت إلى أبي عبـد الرحمن بن نمير، فألقيت هذا الحديث عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونته، فلا تعد إليه (١)، قال ابن العربي: روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: « لو يعلم الناس ما في ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها » ، حديث باطل(٢) ؛ وإنما الحديث الصحيح ما روي عن أنس: أن النبي ﷺ قـال لأبي بن كعب: « إن اللّه أمـرني أن اقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسماني لك؟ قال :«نعم» فبكى .

قلت: خرجه البخاري ومسلم (٣) ، وفيه من الفقه قراءة العـالم على المتعلم، قال بعضهم: إنما قرأ النبي ﷺ على أبيّ، لـيعلم الناس التواضع؛ لئـلا يأنف أحد من التعلم والـقراءة على من دونه في المنزلة، وقيل: لأن أبيًـا كان أسرع أخذًا لألفاظ رسـول اللّه ﷺ؛ فأراد بقراءته عليه، أن يـأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع منه، ويعلم غيره، وفيه فـضيلة عظيمة لأبيّ؛ إذ أمر اللّه رسوله أن يقرأ عليه، قال أبو بكر الأنباري: وحـدثنا أحمد بن الهيـثم بن خالد؛ قال حدثـنا علي بن الجعد، قال حـدثنا عكرمة عن عاصم عن زر بن حبيش قال: في قراءة أبيّ بن كعب: ابن آدم لو أعطي واديًا من مال لالتمس ثانيًا ولو أعطي واديين من مال لالتمس ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللّه على من تاب، قال عكرمة، قرأ علي عاصم ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ ثلاثين آية، هذا فيها (٤)، قال أبو بكر: هذا باطل عند أهل العلم، لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبيّ بن كعب، لا يقرأ فيها هذا المذكور في ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ مما هو معروف في حديث رسول اللّه ﷺ، على أنه من كلام الرسول عليه السلام، لا يحكيه عن رب العالمين

---

(١) موضوع : الذهبي (٤/ ٣٢٢) في ميزان الاعتدال ، وعلته : الهيثم بن خالد الخشاب .

(٢) موضـوع : وفيه إسـحاق بن بشـر الكاهلي وهو كذاب ـ كـما سبق ، وانظر : ابن عـراق (١/ ٢٩٥) في تنزيه الشريعة، وانظر أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٩) لابن العربي المالكي.

(٣) متفق عليه : البخاري (٤٩٥٩) في التفسير ، ومسلم (٧٩٩) في صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) ضعفه ابن العربي (٤/ ١٩٦٩) في أحكام القرآن ، وصححه الألباني (٣٧٩٣) في سنن الترمذي ـ كتاب التفسير، قلت : وهي قراءة تفسيرية .

في القرآن، وما رواه اثنان معهما الإجماع: أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا قراءة العامة، وخط المصحف، وقرأ ابن مسعود «لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين» وهذه قراءة على التفسير، قال ابن العربي وهي جائزة في معرض البيان لا في معرض التلاوة؛ فقد قرأ النبي ﷺ في رواية الصحيح: «فطلقوهن لقبل عدتهن» (١) وهو تفسير؛ فإن التلاوة: هو ما كان في خط المصحف.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع جر عطفا على ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، قال ابن عباس ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود الذين كانوا بيثرب، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع، والمشركون: الذين كانوا بمكة وحولها، والمدينة والذين حولها؛ وهم مشركو قريش (٢)، ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: منتهين عن كفرهم، زائلين عنه، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم ﴿الْبَيِّنَةُ﴾؛ أي: محمد ﷺ، وقيل: الانتهاء بلوغ الغاية أي: لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينة، فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء، وقيل: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائلين؛ أي: لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول، والعرب تقول: ما انفككت أفعل كذا: أي: ما زلت، وما انفك فلان قائمًا، أي: ما زال قائما، وأصل الفك: الفتح؛ ومنه فك الكتاب، وفك الخلخال، وفك السالم، قال طرفة:

فآليت لا ينفكُّ كَشْحي بِطانةً ... لعضبٍ رقيقِ الشَّفْرتينِ مُهَندِ

وقال ذو الرمة:

حَراجِيجُ ما تنفكُّ إلا مُناخة ... على الخسف أو نَرمي بها بلدا قَفرا

يريد: بها تنفك مناخة؛ فزاد «إلا»، وقيل: ﴿مُنفَكِّينَ﴾: بارحين؛ أي: لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة، وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ في كتابهم، حتى بعث؛ فلما بعث حسدوه وجحدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، ولهذا قال ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البينة: ٤] الآية، وعلى هذا ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كانوا يسيؤون القول في محمد ﷺ حتى بعث؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه، وبعث إليهم، فحينئذ عادوه، وقال بعض اللغويين: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ هالكين من قولهم: انفك صلا المرأة عند الولادة؛ وهو أن ينفصل، فلا يلتئم فتهلك، المعنى: لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقال قوم في المشركين: إنهم من

(١) قصد أنها قراءة تفسيرية لا أكثر، وانظر أحكام القرآن (٤/ ١٩٦٩) لابن العربي المالكي.

(٢) ذكره البغوي (٨/ ٤٩٣) في تفسيره دون إسناده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنه.

أهل الكتاب؛ فمن اليهود من قال: عزير ابن اللّه، ومن النصارى من قال: عيسى هو اللّه، ومنهم من قال: هو ابنه، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، وقيل: أهل الكتاب كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم، والمشركون ولدوا على الفطرة، فكفروا حين بلغوا، فلهذا قال: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾، وقيل: المشركون وصف أهل الكتاب أيضا، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد، فالنصارى مثلثة، وعامة اليهود مشبهة؛ والكل شرك، وهو كقولك: جاءني العقلاء والظرفاء؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم، تصفهم بالأمرين، فالمعنى: من أهل الكتاب المشركين، وقيل: إن الكفر هنا هو الكفر بالنبي ﷺ؛ أي: لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون، الذين هم عبدة الأوثان من العرب وغيرهم - وهم الذين ليس لهم كتاب - منفكين، قال القشيري: وفيه بعد؛ لأن الظاهر من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أن هذا الرسول هو محمد ﷺ، فيبعد أن يقال: لم يكن الذين كفروا بمحمد ﷺ منفكين حتى يأتيهم محمد؛ إلا أن يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد - وقد كانوا من قبل معظمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث اللّه محمدا إليهم ويبين لهم الآيات؛ فحينئذ يؤمن قوم، وقرأ الأعمش وإبراهيم «والمشركُونَ» رفعا، عطفا على ﴿الَّذِينَ﴾، والقراءة الأولى أبين؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب، وفي حرف أبيّ: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين»، وفي مصحف ابن مسعود: «لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين»، وقد تقدم، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ قيل حتى أتتهم، والبينة: محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيث من اللّه جل ثناؤه، قال الزجاج: ﴿رَسُولٌ﴾ رفع على البدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾، وقال الفراء: أي: هي رسول من اللّه، أو هو رسول من اللّه؛ لأن البينة قد تذكر فيقال: بينتي فلان، وفي حرف أبيّ وابن مسعود «رَسُولاً» بالنصب على القطع، ﴿يَتْلُو﴾ أي: يقرأ، يقال: تلا يتلو تلاوة، ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرف المكتوب، ﴿مُطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزور، والشك، والنفاق، والضلالة، وقال قتادة: من الباطل، وقيل: من الكذب، والشبهات، والكفر؛ والمعنى واحد، أي: يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب؛ لأنه كان أميا، لا يكتب ولا يقرأ، و﴿مُطَهَّرَةً﴾: من نعت الصحف؛ وهو كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣]، فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر، وهي نعت لما في الصحف من القرآن، وقيل: ﴿مُطَهَّرَةً﴾ أي: ينبغي ألا يمسها إلا المطهرون؛ كما قال في سورة «الواقعة» حسب ما تقدم بيانه، وقيل: الصحف المطهرة: هي التي عند اللّه في أم الكتاب، الذي منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، قال الحسن: يعني الصحف المطهرة في السماء، ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: مستقيمة مستوية محكمة؛ من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح، وقال بعض أهل العلم: الصحف هي الكتب؛ فكيف قال في صحف فيها كتب؟ فالجواب: أن الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال اللّه عز وجل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى حكم، وقال ﷺ: « واللّه لأقضين بينكما بكتاب اللّه »(١) ثم قضى

(١) متفق عليه : وقد سبق .

بالرجم، وليس ذكر الرجم مسطورًا في الكتاب؛ فالمعنى: لأقضين بينكما بحكم الله تعالى، وقال الشاعر:

ومال الولاء بالبلاء فملتم وما ذاك قال اللهُ إذ هو يكتبُ

وقيل: الكتب القيمة: هي القرآن؛ فجعله كتبًا لأنه يشتمل على أنواع من البيان.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: من اليهود والنصارى، خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنهم مظنون بهم علم فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف، ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم البينة الواضحة، والمعني به محمد ﷺ؛ أي: بالقرآن موافقا لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته، وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوته، فلما بعث جحدوا نبوته وتفرقوا، فمنهم من كفر: بغيا وحسدا، ومنهم من آمن؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقيل: ﴿الْبَيِّنَةُ﴾: البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل، قال العلماء: من أول السورة إلى قوله: ﴿قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٥] حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين، وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾: حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: ليوحدوه، واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ بمعنى: «أن»؛ كقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أن يبين، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، و﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وفي حرف عبدالله «وما أمروا إلا أن يعبدوا الله»، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: العبادة؛ ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات فإن الإخلاص من عمل القلب وهو أن يراد به وجه الله تعالى لا غيره.

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء: على دين إبراهيم عليه السلام، وقيل: الحنيف: من اختتن وحج؛ قاله سعيد بن جبير، قال أهل اللغة: وأصله أنه تحنف إلى الإسلام؛ أي: مال إليه.

الثالثة: قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: يعطوها عند محلها، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك الدين الذي أمروا به دين القيمة؛ أي: الدين المستقيم، وقال الزجاج: أي: ذلك دين الملة المستقيمة، و﴿الْقَيِّمَةِ﴾: نعت لموصوف محذوف، أو يقال: دين الأمة القيمة بالحق؛ أي: القائمة بالحق، وفي حرف عبدالله «وذلك الدين القيمة»، قال الخليل ﴿الْقَيِّمَةِ﴾ جمع القيم، والقيم والقائم: واحد، وقال الفراء: أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته،

لاختلاف اللفظين، وعنه أيضا: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة، وقيل: الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: ﴿الْقَيِّمَةِ﴾ ها هنا: الكتب التي جرى ذكرها، والدين مضاف إليها.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: معطوف على﴿الَّذِينَ﴾، أو يكون مجرورا معطوفا على ﴿أَهْلِ﴾، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز (١) على الأصل في الموضعين؛ من قولهم: برأ الله الخلق، وهو البارئ الخالق، وقال﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، الباقون بغير همز، وشد الياء عوضا منه، قال الفراء: إن أخذت البرية من البرى، وهو التراب، فأصله غير الهمز؛ تقول منه: براه الله يبروه بروا؛ أي: خلقه، قال القشيري: ومن قال: البرية من البرى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة، وقيل: البرية: من بريت القلم، أي: قدرته؛ فتدخل فيه الملائكة، ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب منه تخطئة من همز، وقوله ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: شر الخليقة، فقيل يحتمل أن يكون على التعميم، وقال قوم: أي: هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبي ﷺ؛ كما قال تعالى﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] أي: على عالمي زمانكم، ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شر منهم؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح، وكذا ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾: إما على التعميم، أو خير برية عصرهم، وقد استدل بقراءة الهمز من فضل بني آدم على الملائكة، وقد مضى في سورة «البقرة» القول فيه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده (٢).

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨ ﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: ثوابهم، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالقهم ومالكهم، ﴿جَنَّاتُ﴾ أي: بساتين، ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، والمفسرون يقولون﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بطنان الجنة، أي: وسطها؛ تقول: عدن بالمكان يعدن أقام، ومعدن الشيء: مركزه ومستقره، قال الأعشى:

وإن يُستَضافوا إلى حُكمه ... يُضافُوا إلى راجحٍ قد عَدَن

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يظعنون ولا يموتون، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضي أعمالهم؛ كذا قال ابن عباس، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: رضوا هم بثواب الله عز وجل، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجنة، ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: خاف ربه، فتناهى عن المعاصي.

---

(١) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص٣٥).

(٢) سبق أنه لا يمكن القطع في هذه المسألة ـ كما مضى في خلق آدم عليه السلام في سورة «البقرة»، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٨).

سـورة الزلزلة

قال العلماء: وهذه السورة فضلها كثير، وتحتوي على عظيم، روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] عدلت له بثلث القرآن » (١)، قال: حديث غريب، وفي الباب عن ابن عباس، وروي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربع مرات، كان كمن قرأ القرآن كله » (٢)، وروى عبدالله بن عمرو بن العاص قال: لما نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ بكى أبو بكر؛ [فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر ؟» قال: أبكتني هذه السورة] فقال النبي ﷺ: « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم، لخلق أمة يخطئون ويذنبون ويغفر لهم، إنه هو الغفور الرحيم » (٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾ أي: حركت من أصلها، كذا روى عكرمة عن ابن عباس (٤)، وكان يقول: في النفخة الأولى يزلزلها وقاله مجاهد ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦] ثم تزلزل ثانية، فتخرج موتاها وهي الأثقال، وذكر المصدر للتأكيد، ثم أضيف إلى الأرض؛ كقولك: لأعطينك عطيتك؛ أي: عطيتي لك، وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها، وقراءة العامة بكسر الزاي من الزلزال، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر بفتحها، وهو مصدر أيضا، كالوسواس والقلقال والجرجار، وقيل: الكسر المصدر، والفتح الاسم.

﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ ﴾

قال أبو عبيدة والأخفش: إذا كان الميت في بطن الأرض، فهو ثقل لها، وإذا كان فوقها، فهو

---

(١) ضعيف : الترمذي (٢٨٩٣) في فضائل القرآن وضعفه الألباني هنا لكن صحح الألباني الفقرة الأخيرة منه ، وانظر : صحيح أبي داود (١٣١٤) .

(٢) ضعيف : الترمذي والحاكم ، وقد ضعفه الألباني بسبب يمان بن المغيرة (١٣٤٢) في الضعيفة .

(٣) ضعيف وله شواهد تحسنه : الهيثمي (٧/ ١٤١) في المجمع وعزاه للطبراني وفيه: حيى بن عبد الله المعافري، وثقه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، والواحدي (ص٣٩٨) في أسباب النزول وله شواهد كما في الصحيحة (٩٦٧ ـ ٩٧٠) للألباني ـ رحمه الله .

(٤) حسن : الطبري (٣٠/ ٢٩١) في تفسيره .

ثقل عليها، وقال ابن عباس ومجاهد (١) ﴿أَثْقَالَهَا﴾: موتاها، تخرجهم في النفـخة الثانية، ومنه قيل للجن والإنس: الثقلان، وقالت الخنساء:

أبعد ابنِ عمرو من آل الشرِ يَدٌ حَلَّت به الأرضُ أثقالها

تقول: لما دفن عمرو صار حلية لأهل القبـور، من شرفه وسؤدده، وذكر بعض أهل العلم قال: كانت العـرب تقول: إذا كان الرجل سـفاكا للدماء: كـان ثقلا على ظهر الأرض؛ فلمـا مات حطت الأرض عن ظهرها ثقلها، وقيل: ﴿أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها؛ ومنه الحديث: « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة. . . » (٢).

﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝ ﴾

قوله تـعالى: ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ﴾ أي: ابن آدم الكافـر، فروى الضحـاك عن ابن عبـاس قال: هو الأسود بن عبد الأسد (٣)، وقيل: أراد كل إنسان يشـاهد ذلك عند قيام الساعـة في النفخة الأولى، من مؤمن وكـافر، وهذا قول من جعلهـا في الدنيا من أشراط الساعـة؛ لأنهم لا يعلمون جميـعا من أشراط الساعة في ابتداء أمرها، حتى يتحققوا عـمومها؛ فلذلك سأل بعضهم بعضا عنها، وعلى قول من قال: إن المراد بالإنسان الكفار خاصة، جعلها زلزلة القيامة؛ لأن المؤمن معترف بها، فهو لا يسأل عنها، والكافر جاحد لهـا، فلذلك يسأل عنها، ومعنى: ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لها زلزلت، وقيل: ما لها أخرجت أثقالها، وهي كلمة تعـجب؛ أي: لأي شيء زلزلت، ويجوز أن يحيى اللّه الموتى بعد وقوع النفخة الأولى، ثم تتحرك الأرض فتخـرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء، فيقولون من الهول: ما لها.

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بقوله﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، وقيل: بقوله ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾؛ أي: تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ، ثم قيل: هو من قول اللّه تعالى. وقيل: من قول الإنسان؛ أي: يقول الإنسـان ما لها تحدث أخبارها؛ متعـجبًا، وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قرأ رسول اللّه ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: « أتدرون ما أخـبارها » قالوا اللّه ورسوله أعلم، قـال: «فإن أخبارهـا أن تشهد على كل عبـد أو أمة بما عمل على ظهـرها، تقول عمل يوم كذا، كذا وكذا»، قال: « فهذه أخـبارها » ، قال: هذا حديث حسن صحيح غريب (٤) ،

(١) صحيح إلي مجاهد : والإسناد إلى ابن عباس فيـه نظر ، فقد رواه الطبري (٣٠/ ٢٩١) في تفسيره ، من طريق عكرمة ، عن ابن عباس بسند فيه نظر ، ورواه من طريق العوفيين وهو سند الجهالة ، وانظر أثر مجاهد عند ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٣٩) في تفسيره .

(٢) صحيح : مسلم (١٠١٣) في الزكاة ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه والأسطوان : العمود .

(٣) إسناد منقطع : بين الضحاك وابن عباس ـ رضي الله عنهما وانظر: الطبري (٣٠/ ٢٩١) .

(٤) حسن غريب صحيح : الترمذي (٣٣٥٣) في التفسير ، والنسائي (١١٦٩٣) في الكبرى وضعفه الألباني هناك .

قال الماوردي: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾: فيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بأعمال العباد على ظهرها؛ قاله أبو هريرة، ورواه مرفوعا، وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة.

الثاني: تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها؛ قاله يحيى بن سلام، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة.

قلت: وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول اللّه ﷺ: أنه قال: «إذا كان أجل العبد بأرض أوثبته الحاجة إليها، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه اللّه، فتقول الأرض يوم القيامة: رب هذا ما استودعتني»، أخرجه ابن ماجه في سننه، وقد تقدم (١).

الثالث: أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها؟ قاله ابن مسعود، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جوابًا لهم عند سؤالهم، ووعيدًا للكافر، وإنذارًا للمؤمن.

وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أن اللّه تعالى يقلبها حيوانًا ناطقًا؛ فتتكلم بذلك.

الثاني: أن اللّه تعالى يحدث فيها الكلام.

الثالث: أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام، قال الطبري: تبين أخبارها بالرجة والزلزلة وإخراج الموتى.

قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إنها تحدث أخبارها بوحى اللّه ﴿لَهَا﴾، أي: إليها، والعرب تضع لام الصفة موضع «إلى»، قال العجاج يصف الأرض:

أوحَى لها القرارَ فاستقرت وشَدَّهَا بالراسيات الثُّبَّتِ

وهذا قول أبي عبيدة: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: إليها، وقيل: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: أمرها؛ قاله مجاهد، وقال السدي: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: وقيل لها، وقال: سخرها، وقيل: المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أثقالها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر، وروي ذلك عن الثوري وغيره (٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: فرقا؛ جمع شت، قيل: عن موقف الحساب؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب، ﴿أَشْتَاتًا﴾ يعني: فرقا فرقا، ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ثواب أعمالهم، وهذا كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه، فإن كان محسنًا فيقول: لم لا ازددت إحسانا؟ وإن

---

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) كذا رواه الطبري (٣٠/ ٢٩٢) في تفسيره.

كان غيـر ذلك يقول: لم لا نزعت عن المعاصي؟» [١] وهذا عند معاينة الثـواب والعقاب، وكان ابن عباس يقول: ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة، وقـيل: هذا الصدور، إنما هو عند النشـور؛ يصـدرون أشتـاتًا من القبـور، فيـصار بهم إلى مـوقف الحساب، ليروا أعـمالهم في كتبهم، أو ليروا جـزاء أعمالهم؛ فكأنهم وردوا القبور فدفـنوا فيها، ثم صدروا عنها، والوارد: الجائي، والصادر: المنصرف، ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي: يبعثون من أقطار الأرض، وعلى القول الأول فـيه تقـديم وتأخيـر، مجـازه: تحدث أخبـارها بأن ربك أوحى لهـا، ليروا أعمـالهم، واعترض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين عن موقف الحـساب، وقراءة العامة: ﴿لِّيُرَوْا﴾ بضم اليـاء؛ أي: ليريهم اللّه أعـمالهم، وقرأ الحـسن والزهري وقتـادة والأعرج ونصـر بن عاصم وطلحة بفتحها [٢]؛ وروي ذلك عن النبي ﷺ.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ كان ابن عباس يقول: من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرًا يره في الدنيا، ولا يثاب عليه فـي الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة، مع عقـاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شـر من المؤمنين يره في الدنيا، ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مـات، ويتجاوز عنه، وإن عمل مـثقال ذرة من خير يقـبل منه، ويضاعف له في الآخرة، وفي بعض الحـديث: « الذرة لا زنة لها » [٣] وهذا مثل ضربه الله تـعالى: أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبـيرة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقد تقدم الكلام هناك في الذر، وأنه لا وزن له، وذكر بعض أهل اللغـة أن الذر: أن يضرب الرجل بيده على الأرض، فما علق بها من التراب فهو الذر، وكذا قال ابن عباس: إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها، فكل واحد مما لزق به من التراب ذرة، وقال محمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر، يرى ثوابه في الدنيا، في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن، يرى عقوبته في الدنيا، في نفسه وماله وولده وأهله، حتى يخرج من الدنيـا وليس له عند الله شر [٤]، دليله ما رواه العلمـاء الأثبات من حديث أنس: أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وأبو بكر يأكل، فأمسك وقـال: يا رسول الله، وإنا لنرى ما عملنا من خيـر وشر؟ قال: « ما رأيت مما تكره فهو مـثاقيل ذر الشر، ويدخر لكم مثـاقيل ذر الخير،

---

(١) ضعيف جدًا: الترمذي بنحوه (٢٤٠٣) في الزهد، وأبو نعيم (٨/ ١٧٨) في الحلية، وضعفه الألباني (٥١٤٦) في ضعيف الجـامع بلفظ: « ما من أحد يموت إلآ ندم، إن كان مـحسنًا ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم ألا يكون نزع».

(٢) كذا في البحر المحيط (٨/ ٥٠١، ٥٠٢) لأبي حيان.

(٣) هذا ليس بالحديث وقد سبق.

(٤) كذا عند الطبري (٣٠/ ٢٩٦) في تفسيره.

حتى تعطوه يوم القيامة »⁽¹⁾ ، قال أبو إدريس: إن مصداقه في كتاب الله : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وقال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان : ٨] كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يعطوه؛ فإنه يوشك أن يكثر، وتحذرهم اليسير من الذنب، فإنه يوشك أن يكثر ؛ وقاله سعيد بن جبير، والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء.

الثانية : قراءة العامة ﴿يَرَهُ﴾ بفتح الياء فيهما، وقرأ الجحدري والسلمي وعيسى بن عمر وأبان عن عاصم «يُرَهُ» بضم الياء؛ أي: يريه الله إياه، والأولى الاختيار؛ لقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] الآية، وسكن الهاء في قوله: ﴿يَرَهُ﴾ في الموضعين هشام، وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حيوة والمغيرة⁽²⁾ ، واختلس يعقوب والزهري والجحدري وشيبة⁽³⁾، وأشبع الباقون، وقيل ﴿يَرَهُ﴾ أي: يرى جزاءه؛ لأن ما عمله قد مضى وعدم فلا يرى، وأنشدوا:

إنَّ من يعتدي ويكسبُ إثما ... وَزْنَ مِثقالِ ذرة سيراهُ
ويجازى بفعله الشَّرَّ شَرا ... وبفعلِ الجميلِ أيضا جَزاهُ
هكذا قَولُهُ تَبارك ربّي ... في إذا زُلزلت وجل ثَنَاهُ

الثالثة : قال ابن مسعود: هذه أحكم آية في القرآن؛ وصدق، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به، وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾⁽⁴⁾، قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ قال: في الحال قبل المآل، وكان النبي ﷺ يسمى هذه الآية الآية الجامعة الفاذة؛ كما في الصحيح لما سئل عن الحمر وسكت عن البغال⁽⁵⁾، والجواب فيهما واحد؛ لأن البغل والحمار لا كر فيهما ولا فر؛ فلما ذكر النبي ﷺ ما في الخيل من الأجر الدائم، والثواب المستمر، سأل السائل عن الحمر، لأنهم لم يكن عندهم يومئذ بغل، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبي ﷺ «الدُّلْدُل» ، التي أهداها له المقوقس، فأفتاه في الحمير بعموم الآية، وإن في الحمار مثاقيل ذر كثيرة؛ قاله ابن العربي⁽⁶⁾، وفي «الموطأ»:

---

(١) ضعيف : ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤١) في تفسيره والهيثمي (٧/ ١٤١، ١٤٢) في المجمع وقال : «رواه الطبراني في «الأوسط» عن شيخه موسى بن سهل ، والظاهر أنه الوشاء وهو : ضعيف» .
(٢، ٣) قراءتان متواترتان : كما في تقريب النشر (ص١٦) .
(٤) انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٢) .
(٥) صحيح : البخاري (٢٨٦٠) في الجهاد ، ومسلم (٩٨٧) في الزكاة ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه .
(٦) أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٢) .

أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب؛ فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب؛ فقال: أتعجب! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة [١]، وروي عن سعد بن أبي وقاص: أنه تصدق بتمرتين، فقبض السائل يده، فقال للسائل: ويقبل الله منا مثاقيل الذر، وفي التمرتين مثاقيل ذر كثيرة، وروى المطلب بن حنطب: أن أعرابيا سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال: يا رسول الله، أمثقال ذرة! قال: « نعم » فقال الأعرابي: واسوأتاه! مرارا ثم قام وهو يقولها؛ فقال النبي ﷺ: « لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان » [٢]، وقال الحسن: قدم صعصعة عم الفرزدق على النبي ﷺ، فلما سمع ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآيات؛ قال: لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها، حسبي، فقد انتهت الموعظة؛ ذكره الثعلبي، ولفظ الماوردي: وروى أن صعصعة ابن ناجية جد الفرزدق أتى النبي ﷺ يستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية؛ فقال صعصعة: حسبي حسبي؛ إن عملت مثقال ذرة شرا رأيته، وروى معمر عن زيد بن أسلم: أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: علمني مما علمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمه؛ فعلمه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ حتى إذا بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قال: حسبي، فأخبر النبي ﷺ فقال: « دعوه فإنه قد فقه»[٣].

ويحكى أن أعرابيا أخر ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ فقيل: قدمت وأخرت. فقال:

خذا بطنَ هَرشى أو قفاها فإنه كِلا جانبي هَرْشى لَهن طَرِيق [٤]

---

(١) ضعيف: مالك (٢/ ٩٩٧) (١٨١٠) بلاغًا، عن عائشة ـ رضي الله عنها.

(٢) صحيح: ذكره السيوطي (٦/ ٦٤٨) في الدر، وعزاه لسعيد بن منصور، وصححه الهيثمي (٧/ ١٤١) في المجمع.

(٣) مرسل: كما عند عبد الرزّاق (٣٥٧٤) في تفسيره مرسلاً.

(٤) هَرْشى بالفتح ثم السكون: ثنية من طريق مكة قريبة إلى الجحفة يرى منها البحر ولها طريقان، وكل من سلك واحدًا منهما أفضى به إلى موضع واحد. معجم البلدان (٥/ ٤٥٧).

سورة العاديات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أي الأفراس تعدو، كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح، قال قتادة: تضبح إذا عدت[١]؛ أي: تحمحم، وقال الفراء: الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدون، ابن عباس: ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب[٢]، وقيل: كانت تُكْعَم[٣] لئلا تصهل، فيعلم العدو بهم؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة، قال ابن العربي: أقسم الله بمحمد ﷺ فقال: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١]، وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ . . . الآيات الخمس[٤]، وقال أهل اللغة:

وطَعنةِ ذَاتِ رَشاشٍ واهِيه ... طعنتها عند صُدورِ العَادِيه

يعني الخيل، وقال آخر:

والعادياتُ أسابيُّ الدِّماء بها ... كأنَّ أعناقَها أنصابُ تَرجيبِ

يعني الخيل، وقال عنترة:

والخيلُ تَعْلَمُ حين تَضْـ ... ـبحُ في حياضِ الموتِ ضَبْحا

وقال آخر:

لستُ بالتُّبعِ اليمانِيِّ إن لم ... تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العِراقِ

وقال أهل اللغة: وأصل الضبح والضباح للثعالب؛ فاستعير للخيل، وهو من قول العرب: ضبحته النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه، وقال الشاعر:

فلما أن تلهُوجنا شِواءً ... به اللَّهبانُ مقهورا ضَبِيحا

وانضبح لونه: إذا تغير إلى السواد قليلا، وقال:

عَلِقْتُها قَبلَ انضباحِ لوني

وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فزع وتعب أو طمع، ونصب ﴿ضَبْحًا﴾ على

---

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٢٩٩) في تفسيره.

(٢) صحيح: وهو عن عطاء الخراساني كما عند الطبري (٣٠/ ٢٩٨) في تفسيره، ونقله البغوي (٨/ ٥٠٥) في تفسيره، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وابن كثير (٩/ ٣٦٥) في تفسيره.

(٣) الكعام: ما يوضع على فم البعير. اللسان «كعم».

(٤) هذا إن صح أن اسمه (يسّ) ولم يصح: أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٤) للقاضي ابن العربي المالكي.

obeikandi.com

المصدر؛ أي: والعاديات تضبح ضبحا، والضبح أيضا الرماد، وقال البصريون: ﴿ضَبْحًا﴾ نصب على الحال، وقيل: مصدر في موضع الحال، قال أبو عبيدة: ضبحت الخيل ضبحا مثل ضبعت؛ وهو السير، وقال أبو عبيدة: الضبح والضبع: بمعنى العدو والسير.

وكذا قال المبرد: الضبح مد أضباعها في السير، وروي أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى أناس من بني كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء؛ فقال المنافقون: إنهم قتلوا؛ فنزلت هذه السورة إخبارا للنبي ﷺ بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم (١).

وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل، ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد (٢)، والمراد: الخيل التي يغزو عليها المؤمنون.

وفي الخبر: « من لم يعرف حرمة فرس الغازي، ففيه شعبة من النفاق » (٣)، وقول ثان: إنها الإبل؛ قال أبو صالح: نازعت فيها عكرمة فقال عكرمة: قال ابن عباس هي الخيل، وقلت: قال علي هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك (٤)، وقال الشعبي: تمارى علي وابن عباس في ﴿الْعَادِيَاتِ﴾، فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج، وقال ابن عباس: هي الخيل؛ ألا تراه يقول ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٤] فهل تثير إلا بحوافرها! وهل تضبح الإبل! فقال علي: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد؛ ثم قال له علي: أتفتي الناس بما لا تعلم! والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزبير؛ فكيف تكون العاديات ضبحا! إنما العاديات الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فرجعت إلى قول علي (٥)، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي (٦)، ومنه قول صفية بنت عبدالمطلب:

فَلا والعادياتِ غَداة جَمْع بِأيديها إذا سَطَعَ الغُبارُ

يعني: الإبل، وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي.

وقال آخر:

رأى صَاحبي في العَاديات نَجيبةً وأمثَالَهَا في الواضعاتِ القَوامسِ

ومن قال هي الإبل فقوله ﴿ضَبْحًا﴾ بمعنى ضبعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال:

---

(١) ضعيف: الواحدى (ص٣٩٩) في أسباب النزول، والهيثمي في المجمع (٧/ ١٤٢) وعزاه للطبراني وفيه حفص ابن الربيع وهو ضعيف، ورواه الواحدى (ص٣٩٩)، عن مقاتل معضلاً.

(٢) هو صحيح إلى ابن عباس: انظر الطبري (٣٠/ ٢٩٩) في تفسيره.

(٣) منكر: ذكره المتقى الهندى (١٠٦٦٣) في الكنز وعزاه للرافعي، عن أنس، وقال: «منكر».

(٤) انظر التالي، ورواه السيوطي (٦/ ٥٦١، ٥٦٢) في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) حسن: وقد رواه الطبري (٣٠/ ٢٩٩، ٣٠٠) في تفسيره من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٣) في تفسيره، والبغوي (٨/ ٥٠٦) في تفسيره.

ورواه الحاكم (٢/ ١١٥) وصححه، ومال ابن حجر (٨/ ٧٢٧) في الفتح لتحسينه.

(٦) الطبري (٣٠/ ٢٩٩، ٣٠٠) في تفسيره.

ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير، وقال المبرد: الضبع مد أضباعها في السير، والضبح أكثرها ما يستعمل في الخيل، والضبع في الإبل، وقد تبدل الحاء من العين، أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس، وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يضبح إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروي عن ابن عباس (١)، وقد تقدم عن أهل اللغة أن العرب تقول: ضبح الثعلب؛ وضبح في غير ذلك أيضا، قال توبة:

ولو أنَّ لَيلى الأخيليةَ سَلَّمت … عليَّ ودوني تُربة وصفائحُ

لسلمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زقا … إليها صَدى من جانب القبر ضَابِحُ

زقا الصدى يزقو زقاء: أي: صاح، وكل زاق صائح، والزقية: الصيحة.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك: هي الخيل حين توري النار بحوافرها، وهي سنابكها(٢)؛ وروي عن ابن عباس، وعنه أيضا: أورت بحوافرها غبارا، وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار؛ وإنما هذا في الإبل، وروى ابن نجيح عن مجاهد: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ قال قال ابن عباس: هو في القتال وهو في الحج، ابن مسعود: هي الإبل تطأ الحصى، فتخرج منها النار (٣)، وأصل القدح الاستخراج؛ ومنه قدحت العين: إذا أخرجت منها الماء الفاسد، واقتدحت الزند، واقتدحت المرق: غرفته، وركى قدوح: تغترف باليد، والقديح: ما يبقى في أسفل القدر، فيغرف بجهد، والمقدحة: ما تقدح به النار، والقداحة والقداح: الحجر الذي يوري النار، يقال: ورى الزند بالفتح يري وريا: إذا خرجت ناره، وفيه لغة أخرى: وري الزند بالكسر يري فيهما، وقد مضى هذا في سورة الواقعة، و﴿قَدْحًا﴾ انتصب بما انتصب به ﴿ضَبْحًا﴾، وقيل: هذه الآيات في الخيل؛ ولكن إيراءها: أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم، ومنه يقال للحرب إذا التحمت: حمي الوطيس، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وروي معناه عن ابن عباس أيضا (٤)، وقاله قتادة (٥)، وعن ابن عباس (٦) أيضا: أن المراد بالموريات قدحا: مكر الرجال في الحرب؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: والله لأمكرن بك، ثم لأورين لك، وعن ابن عباس(٧) أيضا: هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل، لحاجتهم وطعامهم، وعنه أيضا: أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهابا، وكل من قرب من العدو يوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدو كثيرا، فهذا إقسام بذلك، قال محمد بن كعب: هي النار تجمع (٨)، وقيل: هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة، وقال عكرمة: هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به، ويظهر بها من الحجج، وإقامة الدلائل، وإيضاح الحق، وإبطال الباطل، وروى ابن جريج عن بعضهم قال: فالمنجحات أمرا وعملا، كنجاح الزند إذا أوري.

---

(١) سبق عند الطبري قريبًا.

(٢) كذا عند الطبري (٣٠/ ٣٠٠، ٣٠١)، وفي سند الطبري إلى ابن عباس: ابن جريج، عن عطاء وهو مدلس.

(٣) في إسناده ضعف من طريق الطبري: التفسير (٦/ ٣٠٢).

(٤ ـ ٨) انظر تفسير ابن كثير (٨/ ٣٦٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٥٣، ٦٥٤)، والطبري (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤) في تفسيره.

قلت: هذه الأقوال مجاز؛ ومنه قولهم: فلان يوري زناد الضلالة، والأول: الحقيقة، وأن الخيل من شدة عدوها تقدح النار بحوافرها، قال مقاتل: العرب تسمي تلك النار نار أبي حباحب، وكان أبو حباحب شيخا من مضر في الجاهلية، من أبخل الناس، وكان لا يوقد نارا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون، فيوقد نويرة تقد مرة وتخمد أخرى؛ فإن استيقظ لها أحد أطفأها، كراهية أن ينتفع بها أحد، فشبهت العرب هذه النار بناره؛ لأنه لا ينتقع بها، وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت نارا، فكذلك يسمونها، قال النابغة:

ولا عيبَ فيهم غَيْرَ أن سُيوفَهُم ... بهن فُلولٌ من قِراع الكَتائب
تَقُدُّ السَّلوقي المضاعَفَ نسجُه ... وتوقد بالصُّفاح نار الحُباحِب

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝﴾

الخيل تغير على العدو عند الصبح؛ عن ابن عباس وأكثر المفسرين، وكانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلا، ويأتون العدو صبحا؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧] وقيل: لعزهم أغاروا نهارا، و﴿صُبْحًا﴾ على هذا، أي: علانية، تشبيها بظهور الصبح، وقال ابن مسعود وعلي رضي الله عنهما: هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر منجمع إلى منى، والسنة ألا تدفع حتى تصبح؛ وقاله القرظي، والإغارة: سرعة السير؛ ومنه قولهم:

أشرق ثبير، كيما نغير

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝﴾

أي: غبارا؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به، قال عبدالله بن رواحة:

عدمتُ بنيتي إن لم تَروها ... تُثيرُ النَّقْعَ من كَنَفي كداء

والكناية في ﴿بِهِۦ﴾ ترجع إلى المكان، أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة، وإذا علم المعنى جائز أن يكنى عما لم يجز له ذكر بالتصريح؛ كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقيل: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾، أي: بالعدو ﴿نَقْعًا﴾، وقد تقدم ذكر العدو، وقيل: النقع: ما بين مزدلفة إلى مني؛ قاله محمد بن كعب القرظي، وقيل: إنه طريق الوادي؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع، وفي الصحاح: النقع: الغبار، والجمع: نقاع، والنقع: محبس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه، وفي الحديث: أنه نهى أن يمنع نقع البئر (١)، والنقع: الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء؛ والجمع: نقاع وأنقع؛ مثل بحر وبحار وأبحر.

قلت: وقد يكون النقع رفع الصوت، ومنه حديث عمر حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بني المغيرة أن يسفكن من دموعهن وهن جلوس على أبي سليمان، ما لم يكن نقع، ولا لقلقة (٢)، قال أبو عبيد: يعني بالنقع رفع الصوت؛ على

(١) صحيح بشواهده: كذا قال الألباني (٢٤٧٩) في سنن ابن ماجه كتاب الأحكام (ص٤٢٣) ط ـ الرياض.
(٢) علقه البخاري باب (٣٣) في الجنائز (٣/ ١٦٠) فتح ووصله البخاري في التاريخ الأوسط من طريق الأعمش عن شقيق به، كما في الفتح (٣/ ١٦١).

obeikandl.com

هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم؛ ومنه قول لبيد:

فمتى ينقع صُراخُ صَادقٍ يحلبوها ذَاتَ جَرسٍ وزَجَلِ

ويروى «يحلبوها» أيضا، يقول: متى سمعوا صراخًا أحلبوا الحرب، أي: جمعوا لها، وقوله «ينقع صراخ»: يعني رفع الصوت، وقال الكسائي: قوله «نقع ولا لقلقة» النقع: صنعه الطعام؛ يعني في المأتم، يقال منه: نقعت أنقع نقعا، قال أبو عبيد: ذهب بالنقع إلى النقيعة؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء: صنعة الطعام عند القدوم من سفر، لا في المأتم، وقال بعضهم: يريد عمر بالنقع: وضع التراب على الرأس؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار، ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا، ولا خافه منهن، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهن القيام، فقال: يسفكن من دموعهن وهن جلوس، قال بعضهم: النقع: شق الجيوب؛ وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، وأما اللقلقة: فشدة الصوت، ولم أسمع فيه اختلافا، وقرأ أبو حيوة «فَأَثَّرنَ» بالتشديد؛ أي: أرت آثار ذلك، ومن خفف فهو من أثار: إذا حرك؛ ومنه ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ [الروم: ٩].

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿جَمْعًا﴾ مفعول بـ ﴿وَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾؛ أي: فوسطن بركبانهن العدو؛ أي: الجمع الذي أغاروا عليهم، وقال ابن مسعود: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾: يعني: مزدلفة [١]؛ وسميت جمعا لاجتماع الناس بها، ويقال: وسطت القوم أسطهم وسطا وسطة؛ أي: صرت وسطهم. وقرأ علي رضي الله عنه: «فَوَسَّطن» بالتشديد، وهي قراءة قتادة وابن مسعود وأبي رجاء؛ لغتان بمعنى، يقال: وسطت القوم بالتشديد والتخفيف وتوسطهم: بمعنى واحد، وقيل: معنى التشديد: جعلها الجمع قسمين، والتخفيف: صرن في وسط الجمع؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع [٢].

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ ﴾

هذا جواب القسم؛ أي: طبع الإنسان على كفران النعمة، قال ابن عباس: ﴿لَكَنُودٌ﴾ لكفور جحود لنعم الله، وكذلك قال الحسن، وقال: يذكر المصائب وينسى النعم [٣]، أخذه الشاعر فنظمه:

يا أيها الظالم في فعله والظُّلمُ مَردودٌ على من ظَلَم
إلى مَتى انت وحتَّى متى تشكو المُصيبات وتَنْسَى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكنود هو الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده» [٤]، وروى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أنبأكم بشراركم»؟

(١) حسن: الطبري (٣٠/ ٣٠٥) في تفسيره.
(٢) كذا في تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٤) بنحوه.
(٣) حسن: الطبري (٣٠/ ٣٠٦) في تفسيره.
(٤) ضعيف جدًا: الطبراني في الكبير (٨/ ١٨٨)، والطبري (٣٠/ ٣٠٦) في تفسيره وفي سنديهما جعفر بن الزبير: متروك، وضعفه الألباني (٤٣٠٤) في ضعيف الجامع، والرفد: العطاء. اللسان «رفد».

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: « من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده » [١]، خرجهما الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»، وقد روي عن عباس أيضا أنه قال: الكنود بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور، وبلسان كنانة: البخيل السيئ الملكة؛ وقاله مقاتل، وقال الشاعر:

كَنودٌ لنعماء الرِّجَال وَمَنْ يكن كَنودًا لنعماء الرِّجال يُبعد

أي: كفور، ثم قيل: هو الذي يكفر اليسير، ولا يشكر الكثير، وقيل: الجاحد للحق، وقيل: إنما سميت كندة كندة، لأنها جحدت أباها، وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر:

دَعِ البُخلاءَ إن شمخوا وصَدوا وذِكرى بُخل غَانيةٍ كَنودِ

وقيل: الكنود: من كند إذا قطع؛ كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر، ويقال: كند الحبل: إذا قطعه، قال الأعشى:

أميطي تُميطي بِصُلب الفُؤادِ وصولِ حِبال وكَنَّادها

فهذا يدل على القطع، ويقال: كند يكند كنودا: أي: كفر النعمة وجحدها، فهو كنود، وامرأة كنود أيضا، وكُنُدٌ مثله، قال الأعشى:

أحدث لها تُحدث لوصلك إنها كُنُد لوصلِ الزَّائرِ المُعتادِ

أي: كفور للمواصلة، وقال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر؛ يقول إنه لكفور [٢]؛ ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئا، وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة ، قال المبرد: الكنود: المانع لما عليه، وأنشد لكثير:

أحدث لها تُحدث لوصلك إنها كُنُد لوصلِ الزَّائرِ المُعتادِ

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نعم الله في معاصي الله، وقال أبو بكر الوراق: الكنود: الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه، وقال الترمذي: الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم، وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع وإذا مسه الخير منوع، وقيل: هو الحقود الحسود، وقيل: هو الجهول لقدره، وفي الحكمة: من جهل قدره هتك ستره.

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود، وقد فسر النبي ﷺ معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال.

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ ﴾

أي: وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد، كذا روى منصور عن مجاهد، وهو قول ابن عباس [٣]، وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ وروي عن مجاهد أيضا [٤].

(١) ضعيف: الحكيم الترمذي (١/ ٢٦٧) في نوادر الأصول.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه الطبري (٣٠/ ٣٠٦) في تفسيره، والسيوطي (٦/ ٦٥٣، ٦٥٤) في الدر المنثور.
(٤) صحيح إلى قتادة: االطبري (٣٠/ ٣٠٦) في تفسيره.

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: الإنسان من غير خلاف، ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال؛ ومنه قوله تعالى ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقال عدي:

ماذا تُرجي النفوسُ من طلب الـ خيرِ وحُبُّ الحياة كَاربُهَا

﴿لشديدٌ﴾ أي: لقوي في حبه للمال، ويقال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل، ويقال للبخيل: شديد ومتشدد، قال طرفة:

أرى الموتَ يعتامَ الكرامَ ويَصْطَفي عقليةَ مَال الفَاحشِ المُتشدد

يقال: اعتامه واعتماه؛ أي: أختاره، والفاحش: البخيل أيضا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] أيّ: البخل، قال ابن زيد: سمى الله المال خيرا؛ وعسى أن يكون شرا وحراما؛ ولكن الناس يعدونه خيرا، فسماه الله خيرا لذلك، وسمى الجهاد سوءًا، فقال: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] على ما يسميه الناس، قال الفراء: نظم الآية أن يقال: وإنه لشديد الحب للخير؛ فلما تقدم الحب قال: شديد، وحذف من آخره ذكر الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرؤوس الآي؛ كقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعصوف: للريح لا للأيام، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرح من آخره ذكر الريح؛ كأنه قال: في يوم عاصف الريح.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿أَفَلا يَعْلَمُ﴾ أي: ابن آدم ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي: أثير وقلب وبحث، فأخرج ما فيها، قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع: جعلت أسفله أعلاه، وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يبعثون، الفراء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: «بحثر» بالحاء مكان العين؛ وحكاه الماوردي عن ابن مسعود، وهما بمعنى، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ميز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون: وقال ابن عباس: أبرز، وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم «حَصَلَ» بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي: ظهر، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالم لا يخفى عليه منهم خافية، وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم، وقوله ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ العامل في ﴿إِذَا﴾ ﴿بُعْثِرَ﴾، ولا يعمل فيه ﴿يَعْلَمُ﴾؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا، ولا يعمل فيه ﴿خَبِيرٌ﴾؛ لأن ما بعد ﴿إِنَّ﴾ لا يعمل فيما قبلها، والعامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿خَبِيرٌ﴾، وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت في الخبر لدخول ﴿إِنَّ﴾ على المبتدأ، ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو، فجرى على لسانه «أن ربهم» بفتح الألف، ثم استدركها فقال: «خبير» بغير لام، ولولا اللام لكانت مفتوحة، لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السمال: «أن ربهم بهم يومئذ خبير». والله سبحانه وتعالى أعلم.

سـورة القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أي: القيامة والساعة؛ كذا قال عامة المفسرين، وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وأهل اللغة يقولون: تقول العرب قرعتهم القارعة، وفقرتهم الفاقرة؛ إذا وقع بهم أمر فظيع، قال ابن أحمر:

وقارعة مِنَ الأيامِ لَولا سَبيلُهُم لزاحت عَنك حِينا

وقال آخر:

متى تَقْرع بمروتكم نَسُؤكم ولم تُوقد لنا في القدر نَارُ

وقال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] وهي الشديدة من شدائد الدهر، ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ استفهام؛ أي أيُّ شيء هي القارعة؟ وكذا ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها، كما قال: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] على ما تقدم.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف، تقديره: تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، قال قتادة: الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج [١]، الواحد فراشة، وقاله أبو عبيدة، وقال الفراء: إنه الهمج الطائر من بعوض وغيره؛ ومنه الجراد، ويقال: هو أطيش من فراشه، وقال:

طُويشٌ من نفرٍ أطياشِ أطيش من طَائرةِ الفَراشِ

وقال آخر:

وقَد كَان أقوامٌ رددت قُلوبَهُم عليهم وكانوا كالفَراشِ مِنَ الجهلِ

وفي «صحيح» مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي» [٢]، وفي الباب عن أبي هريرة، والمبثوث: المتفرق، وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، فأول حالهم كالفراش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد،

(١) صحيح: الطبري (٣٠/ ٣١٠) في التفسير.
(٢) صحيح: مسلم (٢٢٨٥/ ١٩) في الفضائل.

لأن لها وجها تقصده، والمبثوث: المتفرق والمنتشر، وإنما ذكر على اللفظ: كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] ولو قال المبثوثة فهو كقوله تعالى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال ابن عباس والفراء: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضا، كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا.

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝ ﴾

أي الصوف الذي ينفش باليد، أي: تصير هباء وتزول؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر﴿هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦] وأهل اللغة يقولون: العهن: الصوف المصبوغ، وقد مضى في سورة «سأل سائل».

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝ ﴾

قد تقدم القول في الميزان في «الأعراف والكهف والأنبياء»، وأن له كفة ولسانا توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات، ثم قيل: إنه ميزان واحد بيد جبريل يزن أعمال بني آدم، فعبر عنه بلفظ الجمع، وقيل: موازين، كما قال:

فلكلِّ حَادثة لها ميزانُ

وقد ذكرناه فيما تقدم، وذكرناه أيضا في كتاب «التذكرة» وقيل: إن الموازين: الحجج والدلائل، قاله عبدالعزيز بن يحيى، واستشهد بقول الشاعر:

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرةٍ عندي لكلِّ مُخاصم ميزانُهُ

ومعنى ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: عيش مرضي، يرضاه صاحبه، وقيل: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها، فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها، وهو اللين والانقياد، فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة، فهي فاعلة للرضا، كالفرش المرفوعة، وارتفاعها مقدار مائة عام، فإذا دنا منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع كهيئتها، ومثل الشجرة فرعها، كذلك أيضا من الارتفاع، فإذا اشتهى ولي الله ثمرتها تدلت إليه، حتى يتناولها ولي الله قاعدا وقائما، وذلك قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] وحيثما مشى أو تنقل من مكان إلى مكان، جرى معه نهر حيث شاء، علوا وسفلا، وذلك قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] فيروى في الخبر إنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه، وهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها، فهي فاعلة للرضا، وهي أنذلت وانقادت بذلا وسماحة، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يعني جهنم، وسماها أما، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه، قاله ابن زيد[1]، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فالأرضُ مَعْقِلُنا وكانت أمنا فيها مَقَابِرُنا وفيها نُولدُ

وسميت النار هاوية، لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها، ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل من

(١) صحيح إليه : الطبري (٣٠/ ٣١٠) في تفسيره .

النار، وقال قتادة: معنى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فمصيره إلى النار [١]، عكرمة: لأنه يهوي فيها على أم رأسه، الأخفش ﴿أُمُّهُ﴾: مستقره، والمعنى متقارب، وقال الشاعر:

يا عمروُ لو نالتك أرماحنا كنت كمن تَهوي به الهاويه

والهاوية: المهواة، وتقول: هوت أمه، فهي هاوية، أي: ثاكلة، قال كعب بن سعد الغنوي:

هوت أمهُ ما يبعث الصُّبحُ غاديًا وماذا يؤدي الليلُ حين يؤوب

والمهوي والمهواة: ما بين الجبلين، ونحو ذلك، وتهاوى القوم في المهواة: إذا سقط بعضهم في إثر بعض، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ الأصل « ما هي» فدخلت الهاء للسكت، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وابن محيصن : « ما هِيَ . نارٌ» بغير هاء [٢] في الوصل، ووقفوا بها، وقد مضى في سورة «الحاقة» بيانه، ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: شديدة الحرارة، وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلها مثل حرها» [٣]، وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه، لأنه وضع فيه الحق، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خف ميزان من خف ميزانه، لأنه وضع فيه الباطل، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفا، وفي الخبر عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «أن الموتى يسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله، فيقول ذلك مات قبلي، أما مرَّ بكم؟ فيقولون: لا والله، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون! ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم، وبئست المربية» [٤]، وقد ذكرناه بكماله في كتاب «التذكرة» ، والحمد لله.

---

(١) صحيح : انظر الطبري (٣٠/ ٣١٠) في تفسيره .

(٢) قراءة متواترة : كما في تقريب النشر (ص٧٩) .

(٣) متفق عليه : البخاري (٣٢٦٥) في بدء الخلق ، ومسلم (٢٨٤٣) في الجنة .

(٤) حسن بشواهده : الحاكم (١٣٠٢، ١٣٠٣) موصولاً عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه، ومرسلاً عن الحسن ، ورواه الطبراني وابن مردويه ، عن أبي أيوب كما في الدر المنثور (٦/ ٦٥٦) وكذا ذكر رواية ابن مردويه عن أنس ، وأرسله عبيد بن عمير كما في مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٦٤) ، و الطبري (٣٠/ ٣١١) في تفسيره مقطوعًا على الأشعث بن عبد الله وهي كلها أسانيد تتعاضد فيما بينها.